الافراط في التعليم

في الناس فئة ليست بقليلة تدعي ان الجهل انفع للانسان من العلم وذلك لما يترتب على العلم من اتساع المطالب والطمع في نيل البعيد بخلاف الجهل الذي يجعل الانسان اقرب الى الحيوان فلا يطلب الا الاكل واللباس غير حافل بقول عروة الصعاليك

لحا الله صعلوكا مناه وهمه من الدهر ان يلقى لوبساً ومطعما

على ان هذا الحزب ليس بالجديد بين الناس بل هو قديم وقد نشأ معهم منذ نشوء العلم والشعور بما ولده من الشقاء والى ذلك يشير ابو الطيب المتنبي بقوله

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ويقول البحتري قبله

ارى العقل بؤسى في المعيشة للفتى ولا عيش الا ما حباك به الجهلُ

ويقول المعري بعدهما

ولو جرت النباهة في طريق الخمول الي لاخترت الخمولا

هذا وللشعراء وسواهم اقوال كثيرة من قديم وجديد وكلها متفقة على ما يولده العلم من الشعور بالشقاء فضلاعن دعوته الى الانتحار وحمل المهذبين عليه حملا ليتخلصوا من العلم بما هم فيه ولذلك يعد المنتحرون من الجهلاء اقل جداً من العقلاء وليس هذا الا لذاك السبب

الا ان اصحاب هذا المذهب كالوليد وابن الحسين والمعري انما قالوا

الذي قالوه حين النظر الى نفوسهم وكونهم غير نائلين من دهرهم على مقدار ذكائهم ومواهبهم السامية ولكنه لو قيل لهم باطلاق هذه الفلسفة على جميع البشر فلا يكون الا خمول شامل وجهالة عامة لانكروها بخلاف رجال هذا المذهب الان فانهم يريدون بذلك ان تكون الدنيا كلها على جهل مطبق حتى يكون الانسان كالحيوان فلا يحزن لاقل شيء بل يسر لاقل شيء ولكنه في كونه على طرف من السداد يعد مذهباً باطلاً يسود به على الاقل اذى الامراض وعدم العلم باتقاء نوازل الدهر وعوادي الطبيعة

الا انه كما ان اطلاق الجهالة على جميع البشر مما يعد فساداً فقد يكون اطلاق العلم على جميعهم فساداً ايضاً وهو ما ربما يكون كله او يكون بعضه في المستقبل فيشعر الآدميون بشقاء عظيم بسبب تعاليهم عن دنيئات الاعمال والمطامع وشدة تزاحمهم على نفائس الدنيا وزخارفها وهي بالطبع لا تكفي جميعهم مهما ولدها علمهم وانماها فيعيشون اشقياء او يكثر بينهم الانتحار جداً

ولكن دون الوصول الى هذه الغاية المخيفة ادهار وادهار وقد لا تكون سنة الطبيعة سامحة بابنائها للوصول الى ذاك الحد الا ان الذي يهم النظر اليه في هذه البلاد بالخصوص هو عدم تلاؤم المعايش بين الشعب فهو اما جاهل او متعلم وليس بينهما وسط يذكر فالجاهل جاهل محض وهو على الغالب ذو حرفة يحترفها بالتقليد ولا علم يعينه على تحسينها او زيادة الربح منها والعالم هو موظف الحكومة وامثاله من سائر الموظفين والخدم المنتشرين في جميع مصالح الامة وهم آخذون بالازدياد الى درجة صارت تقتضي النظر منذ الان خشية على النسل الآتي ان لا يجد لعقله ما ينطبق على مقداره فيسود حينئذ الشقاء

فاننا نجد الان الوفا من الاولاد يذهبون الى المدارس بسبب النهضة العلمية الجديدة والافراط من الدعوة اليها واللوم على تركها ولكن كل هؤلاء التلاميذ لا يتعلمون الا لكي يكونوا خداما للحكومة وهي ليست كافية لهم من جهة ولا هم اكفاء لها من جهة ثانية فان ابن القفاص يذهب الى المدرسة فيتعلم بها نفس ما يتعلمه ابن الامير ولكن التصرف بهذا العلم بعدئذ يكون من حظ ابن الامير بالطبع فهو الذي يخدم وهو الذي يجد من جاهه وماله وطيب منبته خير وسيط لنجاحه بخلاف ذاك فانه لا يخرج الا عالما متسع العقل ضيق الرزق يأنف ان يتعلم حرفة ابيه حتى لقد يأنف ان ينتسب اليه وبذلك تضيق اخلاقه مع الوف من امثاله الى حد مبرّح

ثم ان للعلم لذة وهوًى في كل نفس فهو متى علق الانسان بشيء يذكر منه دعاه ما حصل عليه الى الاستزادة منه حتى يصبح علمه هوى وليس تجارة يراد بها دفع الاذى والحيلة على الرزق فهو حين يعلق مثلاً بالنحو ويصادف مكاناً في فؤاده يود ان يغدو كسيبويه وابي الاسود حتى انه لو حصل على مال وكان ذا تجارة فقد يفسدها عليه فرط هواه بعلمه واشتغاله به وطلب الشهرة والمجد منه. واذا مال الى الشعر وهو اشد ما يولع به المتأدب جعل كل وكده فيه محاولاً ان يغدو كابي الطيب وزهير وهي حالة نراها قد امتدت جداً في الشرق حتى اوشك كل متأدب فيه ان يكون شاعراً كاتباً التماساً للهو بذلك او طلباً للرفعة به وهو مطلب لا بأس ولكنه لا يكون اذ يستحيل ان يكون كل من تعلق على الكتابة والقريض كاتباً شاعراً منوهاً به منيداً قوله طائراً صيته وبهذا يكون الافراط في التعلم سبباً لاغراء التلاميذ بهوى الانشاء فيخرجون وهم لم ينولهم الهوى

ما نولّوه ولا هم بارباب حرف يرتزقون منها فيشبون اشقياء جداً ويصبح العلم هنا وبالاً شديداً على اهله

اما الذنب في ذلك فليس ذنب التلميذ وانما هو ذنب المدرسة او ذنب الوالدين لان الواجب على المدرسة حين ترى التلميذ ابن حائك او نجار ان تعلمه ما ينبغي لدفع اذى الجهل عنه فقط دون ان تتركه يهوى شيئاً من العلوم الجميلة حتى لا تكون سبب فتره ثم تدفعه الى صناعة ابيه اوسواها والواجب ايضاً على الوالدين ان يعلموا مراتبهم فينزلوا اولادهم فيها فلا يعلموهم اكثر ما يجب لهم حتى لا يخرجوا نجباء يعادونهم ويستحيون من السير معهم او الانتماء اليهم بل حتى لا يخرجوا عيالاً عليهم فوق ما كانوا عيالاً من قبل او لا تضيق اخلاقهم من علم لا هو بالمتناهي فينيل رزقا ولا هو بالقليل فيورث رضى وقناعة ولعل مدارسنا وآباء تلامذتها يتأملون هذا القول فيعلمون الاولاد علما مع صناعة كل على مقدار ماله ومنزلته حتى لا يصبح العلم فوضى بلا صناعة تضبطه ورزق يصونه ويرد الاذى عن صاحبه